

المدرسة التعليمية الحرة في منطقة جباله
بين التيار الإصلاحي والتيار الاستقلالي الثوري
1953-1951

الأستاذ: بن عبد المومن ابراهيم

قسم التاريخ

جامعة تلمسان.

الملخص :

هذا المقال عبارة عن دراسة تاريخية تحليلية تبحث في التاريخ المحلي العيني، وتتبع نشاطي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية في منطقة جباله وتفاعل الاحداث وتسارعها إلى غاية الفاتح من ثورة نوفمبر تاريخ اندلاع الثورة التحريرية 1954 .
الكلمات المفتاحية:

جباله، الطَّرَاسْ، ندرومة، الاصلاح، المقدم الطيب، عيساني بن عيسى.

Abstract:

This article Is an analyzed historical investigation which shows the exact local history .The article follows the flow of the activity of Muslim Scholars Association in Jbalacommunity, the activity of TriumphdemocracymovementLiberties and the interaction of events and theirrapidity to the first of november (1954) ,the date of the beginning of the Algerian War of Independance .

Key words :

Jbala .traras .nedroma . reform. leader tayeb. issani ben issa

-مقدمة:

اهتمت جمعية المسلمين الجزائريين للتمكين لمشروعها التربوي ببناء المدارس والدور العلمية وقد قامت بهته المشاريع لتكون منارات وصروحا يهتدي بها الشعب

الجزائري الذي ظل يعيش تحت خط الجهل والخرافات، ولعل مدرسة دار الحديث في تلمسان خير دليل على ذلك خاصة ان كنا سنتحدث عن الغرب الجزائري الذي عرفت فيه الحركة الإصلاحية تأخرا مقارنة بالشرق في ظل الانتشار الواسع للجمعيات المرابطية والزوايا والتي هيمنت على الجانب الفكري والاجتماعي للنسيج السكاني منذ العصور الوسطى .

إلا أنه لا يجب أن يخفى علينا أن الجمعية عملت بالموازاة مع بناء هته المنابر العلمية ببناء ملاحق ومعاهد ومساجد صغيرة بأحواز تلمسان والمدن والقرى والأرياف التابعة إقليميا لها وذلك بمعية جهود قام بها رجال الإصلاح في المنطقة والذين اهتموا الى هذه الحلول لمقاومة سياسة التجهيل والفرنسة التي كانت تنتهجها الادارة الاستعمارية ، ومحاربة البدع والخرافات والتي جعلت الأفراد حبيسي أفكار قديمة لاتصلح لمقاومة مستعمر قد بنى وجوده على سياسة فرق تسد. ومن هنا يقودنا البحث لأن ندرج في هذا المقام احدى المدارس في منطقة جباله¹ التابعة في الوقت الحالي لدائرة ندرومة بولاية تلمسان التي أشرفت الجمعية على بنائها اداريا ، إلا أنه لم يكتب لها النجاح وبأنت تلك المجهودات بالفشل ولم يتم فتح المدرسة وبقيت حبيسة الأقفال إلى غاية الاستقلال. فيا ترى ما أسرار تشييد تلك المدرسة؟ وكيف تكونت الجهود وتكاثفت لبنائها؟ وما الذي حصل بالتحديد ليأتي الأمر بوقفها فجأة باعتبارها مشروعا كان باستطاعته أن يعطي الكثير لأبناء المنطقة؟

1-فكرة مشروع بناء المدرسة:

إن الزيارات المتتالية التي قام بها الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى كل من مدينة مغنية سنة 1931، والغزوات وند رومة سنة ماي 1932 وإلقائه دروس للوعظ والإرشاد بها ومدى تهافت جماهير هذه المدن والأرياف المجاورة لها للاستماع لمحاضرات الشيخ ، كان له الأثر البالغ في تنمية الحس والوعي الاصلاحى والتربوي لديها ، وكانت بمثابة الشرارة الأولى لجعل قابلية الجماهير لتبني مشاريع الإصلاح أكثر سرعة خاصة وأنه أكد على المشاعر الكامنة لدى بخصوص هته المنابر التي كانت مزارا للعلم والعلماء ومهد تكون الزعماء والقادة عبر التاريخ². تلك الزيارات ساهمت بشكل كبير في

إحداث حركة نشطة ومشاورات ومجهودات أولية بين شيوخ الإصلاح وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي ، والحاملين للفكر

الجمعوي والتربوي بالمنطقة من أمثال الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، والأستاذ محمد البشير القباطي والأستاذ محمد عدون، والشيخ المقدم الطيب درريس، والذين تأثروا بأفكار مصلحي الجزائري وعكفوا على بناء المدارس ونشر التعليم ومحاربة الضلال والبدع. كل تلك الجهود تكللت بتأسيس مدارس تابعة لجمعية العلماء بكل من مدينة الغزوات والتي سميت مدرسة التربية والتعليم والتي افتتحت في 26 أكتوبر 1948، وكذلك مدرسة عبد المؤمن بن علي في 11 أكتوبر 1949 في ندرومة والتي حضر افتتاحهما الشيخ البشير الأبراهيمي والتي عين على الأولى الأستاذ محمد القباطي وعلى الثانية الأستاذ عبد الوهاب بن منصور الذي كان مدرسا بدار الحديث بتلمسان في وقت سابق، بالإضافة إلى افتتاح مدرسة التربية والتعليم أيضا بمدينة مغنية في 1943 وتوسيعها العام 1951.

وباعتبار أن منطقة جبال تتوسط هذه المدن الإصلاحية الثلاث أغلبية سكانها كانوا يتواصلون معها بالذهاب إلى الأسواق للتجارة أو التعلم أو الزيارات العائلية، هذا ما جعل الفكر الإصلاحي ينتقل إليها، خاصة وأن رجالها أحسوا بانهم بحاجة ماسة لمدرسة شبيهة بتلك الموجودة في هته المدن ثم أن المسافة البعيدة كان يعيق التنقل إليها والدراسة فيها في ظل انعدام شبكة الطرقات والمواصلات. بالإضافة إلى ذلك كانت جبال منبرا من منابر التعليم الديني ولا سيما القرآن فقد عجت مدا شرها بالكتاتيب والخرابيش الصغيرة التي جاوزت الأربعين كتابا كانت مزارا للطلبة والمسافرين من كل حذب وصوب فكانت تسمى في هته الفترة الريف الصغير³ اسقاطا على اقليم الريف المغربي وذلك لكثرة علمائها وفقهائها ونذكرها هنا على سبي المثال لا الحصر: كتاتيب أولاد العباس، أولاد طالب الحواطة امسيفة، العيون، تَزْنَانَة، أولاد البسي علي، الصوايفة... الخ ويقول عنها في هذا الصدد السيد خلف البوعناني أحد معلمي مدرسة عبد المومن بن علي التابعة لجمعية العلماء بند رومة : { جبال كانت مكتظة بالكتاتيب فكل دشرة تحوي على الأقل على واحد منها، ومن يريد أن يصحح قرآنه أن ذاك ويكرر ما حفظ بشيء سليم ومتقن فعليه بجبال لأن علمائها معروفون، فكان الطلبة يأتون إليها من ما زونة ومعسكر ووهران... الخ ولعل من أشهر علمائها آنذاك والذين قرأت عنهم شخصيا وأعرفهم في المنطقة أذكر: الفقيه السي لخضر منصوري الذي كان مشهورا بحسن الخط العربي وكتابة المصاحف القرآنية والذي كان يعتنق الطريقة التيجانية، والسي أحمد

خرواع، والسي محمد بن داود والعالم السي عبد الله حوات...الخ وقد قرأت فيها حوالي سنة ونصف لما كنت طالبا بكتاب عين غروصات وكتاب والحوانت⁴ ولكن رغم هذا ونظرا للشغف الكبير للعلم وبالموازاة مع التعليم الديني والقرآني كان أبنائها بحاجة ماسة للتبحر أكثر في العلوم الدنيوية من تاريخ وجغرافيا ورياضيات وهندسة وعلوم تساعدهم على التأقلم مع الواقع الاستعماري المعاش.

وبالرغم من عدم فهم جوهر الإصلاح وأهدافه الكامنة والبعيدة المدى بعيدة المدى بالنسبة للغالبية، إلا أن فكرة محاربة الخرافات والبدع التي انتشرت في أوساط بعض المتنورين حول قضايا تقديس القبور والقيام بالزرد وما شابه قد شهدت حراكا مستمرا وأخذوا وردا في الأوساط الشعبية التي عرفت بدورها تخوفا كبيرا للكثيرين ممن يطلقون عليهم "الباديسيين"، فهم يعتبرونهم الفزاعة التي تحاول اجتثاث معتقداتهم وموروثاتهم الضاربة في الجذور⁵، إلا أنه وفي جباله وكما تروي العديد من الروايات لم تكن العامة منحازة بصفة كبيرة للطرفين لكثرة منابر العلم بها بالخصوص الكتابية التي كان يدرس به الفقهاء المغاربة بالخصوص هذا أولا، ثم تشتت القرى بها وتوزعها في قمم الجبال واشتغال الأغلبية بالرعي والزراعة وإن كان مردودهما ضعيفا جعل التردد على الزوايا والمرابطين قليلا وينحصر في غالبية الأحيان على النسوة اللاتي تعودن على تلك الروتينيات، ونذكر هنا على سبيل المثال زوايا وطرقا ساهمت بشقها الإيجابي أكثر منه السلبي كالزاوية القادرية البوتشيشية بمسيفة التي كانت منبر علم كبير عرف بها العالم البودخيلي، وكذلك الزاوية الكرزاوية المعروفة بالخط الجميل...الخ.

كما أن الزيارات المتعددة للمصلحين والمفكرين إلى جباله في هذه الفترة خاصة زيارات الأستاذ عبد الوهاب بن منصور الذي كان معلما بمدرسة عبد المؤمن بن علي بند رومة وإماما خطيبا بجامها الأكبر جعل العقول أكثر تفتحا من ذكر قبل، وهو الرجل المعروف بتوجهه الثوري الاستقلالي مقارنة بتوجهه الإصلاحية والذي وجد عراقيل كبيرة في مدينة ندرومة المعروفة بولائها للطرقية والصوفية، فلجأ للخروج إلى المداشر والقرى المجاورة بسبب المضايقات الإدارية التي تعرض لها، ثم لعله يلقي صدى في أوساط الجبليين الذين كانوا يبدوون أكثر حماسا للانتفاض، بالإضافة إلى ذلك مواعظ الإمام الشيخ بن قادة الذي كان اماما بجامع الغزوات وفاعلية المحاضرات التي كان يلقيها في عديد المناسبات لتوعية العامة كما ان جباله كانت

تعد منطقة شبه حدودية فهي طريق عبور الرحالة والمسافرين والعلماء والتجار من الجزائر إلى المغرب والعكس، فنقطة التواصل هته جعلت عديد الشخصيات تطرق أبواب المنطقة وتحتك برجالها وتمجد تاريخها وتناقش القضايا الدينية والسياسية الحاضرة، ولا زالت الى الآن مناطق تحمل أسماء الرحالة والمسافرين في جباله منذ قديم الزمان على غرار دار الناصر، وجرف القاسة⁶.

2-عملية تشييد المدرسة 1951:

يعد المصلح العامل السيد المقدم الطيب دراريس أحد أبرز رجال الفكر والإصلاح والسياسة في جباله في هته الفترة، فقد احتك الرجل بعديد رجال الجمعية في ندرومة وتلمسان ومغنية والغزوات ومازونة... الخ وكان له العديد من الأصدقاء، وقد ارتأى أن يبني مدرسة مشابهة بجباله لكي تكون منبرا للتعليم العربي الحرومسجدا يجتمع فيه المصلون⁷، فعرض بذلك الأمر على أعيان المنطقة فوافقوا على ذلك فشرع العمل في بنائها ابتداء من 1951 وتحديدًا بقرية الطُّرَّاس⁸ التي تتبع حاليا قرية العجاجة.

جُلب بناء من المغرب الأقصى ليقوم بتشيدها وذلك لمحاكاة الطراز المعماري المغاربي الإسلامي، ويروي شهود عيان أنه البناء كان ذو رجل واحدة، وقد شارك فيها الجميع تقريبا من خلال التبرعات المادية والمعنوية⁹ وأشارت إلى ذلك جريدة البصائر في عددها الصادر رقم 207 وذلك يوم الإثنين 17 نوفمبر 1952 قائلة: {منذ مدة شرع المصلحون بقبيلة جباله (ممتزجة بندرومة) في بناء مسجد ومدرسة حرة تابعة لجمعية العلماء تحت اشراف الشعبة المؤسسة حديثا برئاسة المصلح العامل السيد الطيب الضراريس، وقد قام المصلحون في كل من ندرومة والغزوات بشد عضد إخوانهم الجبليين ومد أيدي المساعدة المادية والأدبية لهم حتى يقع اكمال هذا المشروع العظيم في أمد وجيز}¹⁰.

بعد عملية التشييد زودت المدرسة بالمناضد والكراسي والسيبورات والمعدات، وأنشأت شعبة تابعة للجمعية لإدارتها والتكفل بالمشروع الإصلاحي بجباله نذكر أبرزهم: المقدّم الطيّب دراريس، والسيد عيساني بن عيسى، والسيد عيساني براج، وقد حاولت الجماعة أن تخفي يوم الافتتاح عن الإدارة الاستعمارية قدر

المستطاع، لئلا تتعرض للمضايقات من طرف حاكم ند رومة الذي كان حاقدا على جباله خاصة بعد أحداث سوق ندرومة 1952 .

3-من جمعية العلماء الى حركة الانتصار للحريات الديمقراطية:

تنامي دور حزب الشعب (حركة الانتصار الجديد) في منطقة جباله في هذه الفترة وتعدّ منطقتا الحرايقي والطّراس من المناطق النشطة في الحركة الوطنية، فظهور جيل جديد يؤمن باستقلال الجزائر والميول للخيار الثوري أضحى واضحا للعيان قبل اندلاع الثورة وفي هذا الصدد يقول المجاهد عيساني بُوخْوَيْطُ: "أصبحت اجتماعات قادة الحزب في منازل جباله تدور دائما حول مجازر 8 ماي 1945، وبدأنا نتدرب على حمل السلاح وتكوين الخلايا والفرق قبل اندلاع الثورة وكان دراريس موح الطيب هو قائدنا في هته الفترة"

في هذه الفترة تفتطن حزب حركة الانتصار لأهمية انشاء المدارس الحرة من أجل التعليم خاصة في منطقة لها ارث تاريخي كبير كند رومة وضواحيها، وقد كانت المهمة صعبة في منطقة جد محافظة وتعليمها العربي العتيق جد محصور كما ان أسبقية جمعية العلماء في بسط النفوذ على القرى والمداشر بها كانت أسبق، ولكن وبالرغم من ذلك سعت حركة الانتصار لفتح مدارس قرآنية وتأطيرها في عديد المناطق الريفية، ولكن الكثير منها تعرض لغلق بأمر قضائي تحت حجة عدم وجود تراخيص إدارية لها، وقد تنامي عددها سنة 1951 ووصلت الى 98 مدرسة قرآنية وبها 199 مدرس والكثير منهم ذو ميول وطنية ومناصرين لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وتوزعت هذه المدارس وحسب تعدادها وترتيبها بالسواحلية، زاوية الميرة، بني منير، جباله، بني مسهل والمناطق الريفية المجاورة لند رومة¹¹.

في هذا الصدد قد جاء السيد موح الطيب ابن المقدم الطيب¹² ومعه عيساني الشاب ابن عيساني بن عيسى وعرض على أبويهما ان تحول إدارة المدرسة من الجمعية إلى حركة الانتصار أو الحركة الوطنية كما يصطلح عليه في المنطقة. حدث تخوف نسبي في بداية الأمر من التراخيص وقضية المضايقات خاصة بعد أحداث سوق ندرومة والتي كانت لم تُمَح آثارها بعد، فأصابع الاتهام كانت موجهة إلى بعض الأشخاص المشوشين المحسوبين على تيار ميصالي الحاج من عرشي جباله وبني منير والذين احدثوا ضجيجا كبيرا في ندرومة الهادئة واستطاعوا كسر جدار الصمت في أكتوبر 1952، تلك المظاهرات وحالات الشغب كما سمتها الصحافة الفرنسية يومها

استطاعت ان تشجّ رأس الحاكم العام بندرومة كما زجت بحوالي 2000 شخص في محتشد للاستنطاق والاستجواب، لذلك لم يكن الأمر سهلاً القيام بمغامرة كهته فتعب سنتين من البناء والتشييد والجهود والوساطات والتبرعات قد يذهب هباء بين لحظة وأخرى، ولكن يتبين أنه وبعد مشاورات بين الآباء المتخوفين والأبناء المتحمسين عادت الكلمة الأخيرة للأبناء الذين استطاعوا ان يعطوها لباس الحزب الاستقلالي التحرري الميصالي، وهي التي كان معولاً عليها أن تحمل الفكر الإصلاحي الديني الباديبي.

4-افتتاح المدرسة:

تقرر فتح المدرسة ولكن اللجنة المعنية تحفظت عن ذكر تاريخ الافتتاح، وفي هذا المقام استدعى حاكم ند رومة كلا من المكلفين بشؤونها السيد المقدم الطيب الرجل السياسي النصف مثقف، والسيد عيساني بن عيسى لاستفسارهما حولها ،وقد درا بينهما حديث مطول حول الوضع في المنطقة والنشاط الذي يميز طابعها في الفترة الأخير وقد سأل الحاكم المقدم الطيب قائلاً: "لماذا كنتم قديماً تحبوننا ونحبكم واليوم تغيرت الأمور وأضحيتم تكرهوننا ونكرهكم؟" فرد المقدم الطيب عليه بذلك قائلاً: "قديماً أولادنا لم يكونوا متعلمين لغتكم الفرنسية ولا هم أولادكم كانوا يتعلمون العربية.وعندما تعلم اولادنا وأولادكم وأصبح يفهم كل طرف منا الطرف الآخر أصبحنا نعرفكم وتعرفوننا وهكذا تربي الكرة"¹³.

عرض الحاكم بعدها على المقدم الطيب و عيساني أن يفتتحوا المدرسة في صمت ويقوموا فقط بتقديم وجبة الكسكس لأبنائهم وجيرانهم وأن لا يعزموا الأشخاص من مختلف الجهات، لكنهما رفضا متحججين قائلين: "لا نستطيع رفض أي أحد فنحن ناس كرم وضيافة منذ زمان وإن جاءنا أحد لا يمكننا طرده فقط لإرضائكم"

وتهكم عيساني على الحاكم بمثل شعبي قائلاً: "إن قامت الرياح وجاءت بالأوراق والتبن والتراب هل تستطيع ان تصدها يا حضرة الحاكم؟" فقال لهما الحاكم: "إذن ستتحملان مسؤولية ما تقولان".

بعد ذلك قامت الشرطة الفرنسية بتعذيب أحد الفلاحين من أبناء المنطقة والضغط عليه بمعية الحاكم فأقر بتاريخ افتتاحها ،عندئذ استبقت القوات الفرنسية يوم قبل ذلك وطوقت المدرسة وكل الدشرة بالدبابات والشاحنات والعساكر وفرضت حالة الحصار ومنعت الأشخاص من الاقتراب إليها¹⁴.
في يوم 6 أوت 1953 بدأت الوفود و الشخصيات بالمجيء للاحتفال بالافتتاح الرسمي، الأمر الذي دفع بالقوات الفرنسية والبوليس إلى صدهم ومنعهم من الوصول الى مقر المدرسة، وقد اعتقل الكثير عقب احتجاجهم على ذلك فبلغ عدد المعتقلين حوالي 27 شخصا من جباله و امسيرة والسواحلية وأغلقت المدرسة نهائيا ونهبت مناضدها وكراسيها ومعداتها، وكادت أن تحدث مجزرة كبيرة لولا تدخل الشهيد موح الطيب¹⁵ ابن المقدم الطيب الذي كان قد جند في الحملة في الحرب في سورية والذي كان يتكلم الفرنسية وهو الخبير بشؤون الحرب فأوقف حالة الاستنفار والاحتجاج والغليان التي صاحبت الجماهير خوفا من حدوث مجزرة كبيرة، وحاول اقناع الضابط المكلف بالمهمة لكنه لم يستطع، وبهذا افتقرت الحشود راجعة خائبة الآمال ولم يكتب للمدرسة أن تفتح، وبقيت حبيسة الأقفال لعدة سنين بعدها خاصة واندلاع الثورة كانت بعد سنة فقط.

5- لماذا لم تفتح المدرسة؟

يشير التقرير المؤرخ في 12 جانفي 1952 والمبعوث من طرف حاكم ند رومة إلى الوالي العام بوهان إلى أنه قد تم وضع مراقبة حريصة ودقيقة على كل من الأشخاص التالي ذكرهم: المقدم الطيب وعيساني بن عيسى وعيساني براج، هذا ووضح التقرير على أن هؤلاء يعدّون من الوطنيين وهم أشخاص خطيرون وخاصة المقدم الطيب الذي كان مرشحا لمنصب رئيس دوار جباله وهو شخص خطير يجب مراقبته دائما¹⁶.
ثم إن المدرسة حوّلت في برنامجها وأهدافها إلى حركة الانتصار للحريات الديمقراطية وهي مبنية في دشرة تسمى الطّاراس بؤرة توتر وأغلب رجالها منتمون إلى هذا الحزب ذو التوجه التحرري الاستقلالي ومتمردون في نظر السلطة الفرنسية، فالمقدم الطيب دخل سجن الغزوات عقب احتجاجه على انتخابات 17 جوان 1951 وخرج منه بعد سنة في ماي 1952¹⁷، ويقول في هذا الصدد المجاهد قوال مصطفى: فرنسا اعترضت على فتح المدرسة لأن أصحابها ذوي نزعة استقلالية وهم سياسيون حزيون أكثر منهم مصلحون¹⁸، كما أن أول شهيد من المنطقة هو

الشهيد عبد القادر دراريس الذي قتل في أحداث عيد الحرية والمساواة في 14 جويلية 1953 بفرنسا وقد حضر معظم الرجال الوطنيين من حركة الانتصار في جنازته وألقيت الخطب والمحاضرات الوطنية في قرية الطّرازين¹⁹ وعلى رأسها محاضرة الأديب الراحل محمد مصاييف الذي أثنى على خصال الرجل²⁰ مع العلم ان الشهيد جاء ملفوفا في العلم الجزائري في نسخته الحالية وكثيرون هم الذين رأوا العلم لأول مرة²¹.

كما أن المحرك الخفي بشأن بناء المدرسة هو الأستاذ عبد الوهاب بن منصور الذي كان مدرسا بمدرسة عبد المؤمن بن علي بند رومة يعد من التحررين السياسيين أكثر منه رجل اصلاح²² لهذا فقد فر هاربا عام 1956 إلى المغرب الأقصى من بطش الادارة خوفا من تصفيته. فأغلب خطبه كانت تحررية وحماسية تدعو للاندفاع وقد لقي معارضة شديدة للهجته أمام شيوخ الطرق الصوفية في مدينة ندرومة فقرر الخروج الى المداشر²³ خاصة جباله والسواحلية التي كانت متعطشة لمثل هذه الأفكار.

لكن الشيخ يخلف البوعناني يرى أن المدرسة أغلقت لأن محمد المصاييف الأديب الراحل هو كان المسؤول عن تحريك التيار الاستقلالي بالمنطقة، وهو كان المسؤول عن المدرسة لكن بصفة ربما خفية²⁴، وحاولنا نحن نتقنى أثر هذه القضية الشائكة فحاولنا تتبع مسار الرجل (=مصاييف) من خلال كتاباته ومواقفه فوجدنا الآتي:

محمد مصاييف كان يشرف على مدرسة حرة اسمها التقدم بمغنية، وقد تعرض لمضايقات عديدة بصفته كان مدير المدرسة تلك بحيث تقول المنار في عددها الصادر يوم 17 ديسمبر 1952: "ضايقت الشرطة الفرنسية نشاط مدرسة التقدم بمغنية، وعلى رأسها المدير محمد مصاييف بحيث أمرتهم الشرطة بإغلاق المدرسة لانهم لا يملكون رخصة كافية تخول لهم النشاط"²⁵، وعن مصاييف يقول عيساني بوخويط: "يوم قتل الشهيد عبد القادر دراريس في 7 جويلية 1953، وجيء به لقرية الطراريس لدفنه، صعد مصاييف وخطب في الناس خطابا حماسيا أجمع صفوفهم وهز قلوبهم، فكان ذو لسان حار ولهجته استقلالية محظية"²⁶، كما يقول عنه المجاهد صباغ محمد أحد اهم المسؤولين عن سفينة اطوس الناقلة للأسلحة 1956: "عرفت مصاييف في القرويين، كان رجلا متحمسا وجد شجاع هو لا يخاف

وكثيرا ما كان يدخل في ملاسنت مع الشرطة وهو دائما يدافع عن القضية الوطنية"²⁷.

فكثيرة هي الأقاويل عن أسباب غلق المدرسة ولكن كلها تصب في خانة واحدة فيمكننا القول أن المدرسة أغلقت لأسباب مختلفة جل ما ذكر سابقا منها صحيح ونوضح ذلك أكثر كالتالي:

1- حولت المدرسة من إشراف جمعية العلماء إلى إشراف حركة الانتصار، خاصة وأن حركة الانتصار في هذه الفترة كانت قد اخترقت العديد من شعب الجمعية وحركة أحباب البيان، وسيطرت على أفكارها وربما هو السبب الأول في ذلك.

2- كل الشخصيات التي ساهمت من قريب أو من بعيد في بناء المدرسة هي شخصيات معروفة بزعمتها التحررية الاستقلالية وهي إما منخرطة في حركة الانتصار "حزب الشعب" أو متعاطفة معه ونذكر منها: المقدم الطيب دراريس، عيساني بن عيسى، عيساني براج، محمد مصايف، عبد الوهاب بن منصور، موح الطيب... الخ.

3- تعد قرية الطاراس القرية الأولى التي عرفت الحركة الوطنية في جباله بحكم قربها من منطقة السواحلية التي دخلتها مبكرا الأفكار التحررية، وقدمت في الثورة عديد الرجال على غرار الشهيد موح الطيب، وموح البشير، والشهيد عبد القادر دراريس، فهي معقل الثوار، بحيث أن عبد الحفيظ بوصوف والعربي بن مهيدي اتصلا لأول مرة بجباله عن طريق رجالات هذه القرية، فكانت الإدارة الاستعمارية في ند رومة والمناطق المجاورة تخاف المنطقة كثيرا، فكانت تسعى دائما لعرقلة جهودها في الإصلاح والتوعية أو التنمية.

وقد نطرح سؤالاً على أنفسنا، قد يأخذنا لقراءات أخرى، لماذا لم تكن إدارة الجمعية في تلمسان مثلاً هي التي أوعزت للإدارة الاستعمارية بغلق المدرسة لأنها أخذت منها مشروعها وبالتالي رجالاتها ونفوذها في المنطقة؟

وتشير كثير من المراجع والمصادر أن عديد المعلمين المعروفين بانتمائهم للتيار الثوري طردوا من مدارس الجمعية في عديد المناسبات على غرار ما وقع مع المعلم سيد أحمد الشاوي بودغن الذي استعانت إدارة الجمعية بالشرطة لطرده من دار الحديث متهمة إياه بتدريس تلاميذه السياسة²⁸.

حتى وحينما تتبعنا جريدة البصائر التي كانت قد تكلمت عن المدرسة وقد أشرنا إليها سابقا، فإنها لم تشر إلى يوم الافتتاح ولا إلى حادثة الإغلاق فربما تكتمها عن ذلك يوحي بالصراع الذي كان قائما، وحتى إن لم تصل لدرجة الصراع فتلك القطيعة التي حدثت ربما ليس حسدا أو بغضا أو رغبة في تعطيل المشروع للاحتواء الذي وقع من طرف رجال حركة الانتصار ولكن خوفا ربما من تبنيه وبالتالي تبني توجه التيار الاستقلالي ورجاله في تلمسان ، وبالتالي التعرض للمضايقة من طرف الإدارة الاستعمارية. وفي المقابل تقول مصادر شفوية أن جريدة الجزائر الحرة لسان حال حركة الانتصار قد أشارت إلى حفل الافتتاح، لكن لم نستطع التحصل عليها للأسف الشديد، لأنها شبه مفقودة ثم إن الإدارة الاستعمارية قد شددت الخناق عليها كثيرا في سنة 1953، لما كانت تحمله من موضوعات ساخنة، وقد أشارت الى تلك المضايقات جريدة المنار في عديد المناسبات²⁹، والسبب الثاني ربما هو أن أدبيات ووثائق حركة الانتصار لم تحظ بالاهتمام الوافي بعد الاستقلال فهمشت ولم يتم جمعها كلها فضاعت العديد من اعدادها الهامة.

ونحن إن أشرنا إلى قضية الاحتكاك والتلاقي الواقع بين الجمعية وحركة الانتصار لفم يكن هدفنا ان نتهم البعض ونزكي البعض ولكن فقط لإبراز نقطة جد حساسة يجب ان يتوخاها المؤرخ وهي ان قضية مواقف الرجال أو الزعامات تتنافى في عديد من الاحيان، مع مواقف الهيئات أو الأحزاب المنتهية إليها، فلا يجب التعميم ، ولا التسرع في إصدار الأحكام، فكثيرة هي الحالات التي حملت نفس التوجهات والرؤى والأهداف في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية.

- خاتمة:

في الأخير يمكننا أن نثني على الدور الذي اضطلعت به الجمعية ورجالاتها في المنطقة ومنذ الزيارات الاولى لعبد الحميد ابن باديس في سبيل انشاء هذه المدارس والمساجد، فمشروعها كان مشروعا تربويا نهضويا اصلاحيا بامتياز، ولكن ربما تسارع الأحداث والميولات التي حصلت بشأن التوجه إلى الخيار الثوري المسلح قد فوّت عليها انشاء فرع لها في عرش جباله المعروف بطابعة العلمي العتيق والمحافظ، في تلك الأثناء كان فرع حركة الانتصار ورجالاته يرى ضرورة اعطاء دفعة جديدة لنفسه ومن ثم للمداشر والقرى والسيطرة عليها فقام باحتواء مشروع المدرسة والمسؤولين عنها ، والذي كان بمثابة تكامل ايجابي ساهم في دفع وثيرة النضال الى

الأمام، وتبقى هذه الحادثة تبين للدراس للتاريخ أن للجمعية(التيار الإصلاحي) وحركة الانتصار(التيار الاستقلالي) دورا مهما في الريف الجزائري ولم تقتصر مهامهما على المدينة فقط، بل تعدى بالوصول الى نقاط هامة واستراتيجية لعبت دورا كبيرا قبل وأثناء الثورة بأن شكلت وعاء مناسبة هيا رجالا وقادة لاحتضانها.

الهوامش:

1. جباله هي بلدية حالية تابعة إداريا لدائرة ند رومة ،ولاية تلمسان بأقصى الغرب الجزائري ،يتشكل نسيجها الاجتماعي من عرق أمازيغي بربري بدرجة أولى، وهي تشكل سلسلة هامة من سلسلة قبائل كوميه الشهيرة في المنطقة التي ينتمي إليها عبد المؤمن بن علي الكومي خليفة الموحدين ،عرفت جباله اضطرابات عدة خلال العصور الوسطى خاصة وانها كانت تشكل منطقة وسطا بين الصراع الدائر بين بني زيان وبني مرين، استطاعت في القرن 16م أن تشكل حلفا قويا "كونفدرالية اترارة" لمقاومة الإسبان والأتراك على يد القائد اليعقوبي والتي كانت مقر حكمه ما يصطلح عليه حديثا بزواوية اليعقوبي القرية المحاذية لند رومة ،عرفت جباله مقاومة شرسة غداة الاستعمار الفرنسي للجزائر وشاركت فروعها ببسالة مع جيوش الأمير عبد القادر ووقعت معارك كبيرة على أراضيها كمعركة باب تازة ،كما قدمت قرابة الألف شهيد في الثورة التحريرية خاصة وانها منطقة حدودية لعبت دورا هاما في عملية تمرير الأسلحة ونقل المهاجرين.
2. خالد مرزوق والمختار بن عامر، مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان ،آثار ومواقف 1931،1948،1907، دار زمورة للنشر والتوزيع ، الجزائر، ص 377،376
3. حوار مع الشيخ بن يونس آيت سالم امام بدار الحديث تلمسان، يوم 13أفريل2015.
4. حوار مع الشيخ يخلف البوعناني في بيته بمدينة مغنية يوم:24أفريل2015
5. علي مراد ، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي(1925-1940)،ترجمة: محمد يحياتن ، دار الحكمة،الجزائر،2007،ص192.
6. جرف القاسم: هو مكان حاليا قريب من قرية زورانة (بلدية جباله)كان يستريح فيه المسافرين القادمون من وإلى فاس باتجاه المغرب الجزائر وهو معروف منذ القدم ومتوارث في الذاكرة الشفوية.
7. نشير إلى انه في هذه الفترة كانت مداشر جباله تحوي خرايش ومصليات صغيرة والمسجد الكبير الذي كانت تقام فيه صلوات الجمعة في ناحية امسيفة هو مسجد دار الناصر، فكل

المداشر تجتمع إليه كل يوم جمعة ك:دشرة صف حماد، البريج، أولاد السي علي، الغرايرة، أولادبرحو، الحدادش، ترنانة، العروس...الخ.

8. الطّراس: هي جمع ترّاس والترّاس هي كلمة أمازيغية تعني الرجل الشجاع القوي الذي لا يهاب، وسميت المنطقة قديما بترارة ونعني بها قبيلة كومية تقريبا كمجال جغرافي قديما والتي أخذت هذا الاسم وتمتد ترارة من حدود ولهاصة شرقا إلى واد كيس غربا ومن بني يزناسن وصولا إلى بني سنوس، وحسب الروايات سميت بترارة لأن الاسبان لما دخلوا إلى شمال افريقيا غازين وخاصة في هذه المنطقة قالوا طرارة(les traras لعدم تحكمهم في اللفظ، وقد كانت كنفيديرالية ترارة التي وحدها اليعقوبي قوة لا يستهان بها. حوار مع الأستاذ سريج محمد، باحث في تاريخ المنطقة وأنثروبولوجي، جانفي 2015 بتلمسان.

9. شهادة حية مع المجاهد عيساني المدعو بوخويط وهو ابن عيساني بن عيسى أحد أعضاء إدارة فرع الجمعية والمسؤولين عن المدرسة، يوم 7 فيفري 2015 بالعجاجة/جباله.

10. جريدة البصائر، السنة الخامسة من السلسلة الجديدة، الجزء التاسع، العدد 207، من السنة 1952، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان 2006. أنظر الملحق رقم 01:

11. جيلاني عبد القادر بلوفة، حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في عمالة وهران الخروج من النفق /من اكتشاف المنظمة الخاصة الى اندلاع الثورة التحريرية 1954، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2008، ص 147.

12. موح الطيب هو اسم محمد الطيب، والعادة في جباله جرت على ان يضاف اسم الوالد لابنه.

13. شهادة حية مع عيساني بوخويط، المصدر السابق.

14. عيساني بوخويط، المصدر السابق.

15. الشهيد موح الطيّب :هو دراريس محمد ولد الطيب من مواليد 01 أوت 1917 بجباله، درس بكتاتيب المنطقة، جند للخدمة العسكرية وسنه 21 سنة 20 أكتوبر 1938، انتقل من خلالها من الجزائر الى فرنسا ثم الى ألمانيا ثم إلى بلاد الشام إلى أن سرح يوم 08 أكتوبر 1945، اشتغل بتوعية سكان مداشر جباله وضواحيها هو وأبوه المقدم الطيب، وقد استقبلا الشهيد العربي بن مهيدي بالمنزل الذي كان مركزا للقيادة في المنطقة والذي سلم لهما شهادة من القيادة المحلية

لجبهة التحرير الوطني ،كلف الشهيد بالتنظيم والتموين والتعبئة والتجنيد والتسليح في المنطقة الحدودية والاتصال بين قواعد الجزائر والمغرب،وقد استقبل الدفوعات الاولى من الأسلحة التي وصلت على متن الباخرة دينا 1955،كما شارك في عدة معارك وللتحضير لها على غرار: معركة مسيفة ، الصبابة، واد السبع، فلاوسن، تيانث، بغاون الغزوات، بني واسين...الخ، استشهد برتبة ضابط في جيش التحرير برتبة ملازم، ومحافظ سياسي وعضو القيادة السياسية لجبهة التحرير الوطني والحكومة، وذلك بسهل أنقاد "الشبيكية" حاليا بعدما أفشي سرهم يوم 19 جوان 1957. شهادات حية متفرقة عن الرجل.

16. أنظر الملحق رقم :03.

17. أنظر الملحق رقم:02.

18. شهادة المجاهد قوال مصطفى، المناقشة العامة لليوم الدراسي الأول حول تاريخ منطقة جباله وضواحيها تحت شعار حكاية عراق وكفاح شعب، تنظيم جمعية روافد للبحث في التاريخ والتراث لبلدية جباله،يوم 13ديسمبر 2014،دار الشباب،جباله.

19. , daniel kupferstein , les balles du 14 juillet 1953 استطعت ان احصل على نسخة من القرص المضغوط من احد أصدقاء منتج ومخرج هذا الشريط مؤخرا والذي لم يعرض بعد على شاشات التلفزيون بفرنسا

20. محمد مصاييف تأبينية الشهيد عبد القادر درريس مجلة المنار 1953

21. عيساني بوخويط ،المصدر السابق.

22. جيلاني عبد القادر بلوفة ،المرجع السابق ،ص 147.

23. عبد الوهاب بن منصور(الروائي الجزائري الحالي وليس المؤرخ المغربي)،المناقشة العامة،اليوم الدراسي الأول حول تاريخ جباله، المرجع السابق.

24. الشيخ يخلف البوعناني، المصدر السابق.

25. جريدة المنار، السنة الثانية،العدد14،الجمعة 29ديسمبر1952،دار

البصائر،ط1،الجزائر،2007،ص3.

26. عيساني بوخويط، المصدر السابق.

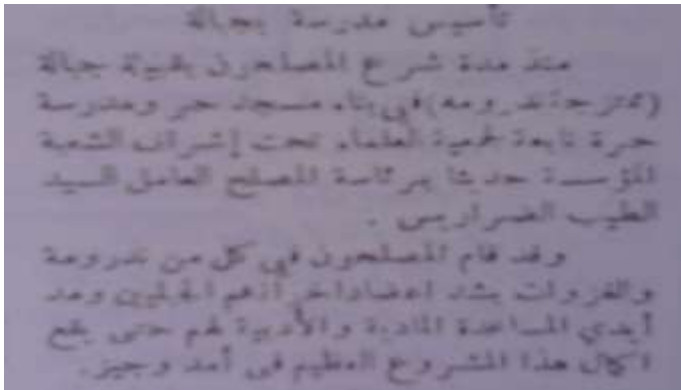
27. شهادة حية مع محمد صباغ، مجاهد من منطقة جباله ومن أبرز قادة عملية سفينة أطوس التي اكتشفها الاستعمار وسفير سابق بليبيا في الجزائر المستقلة، يوم 03 ديسمبر 2014 ببيته بسيدي بلعباس.

28. خالد مرزوق والمختار بن عامر، المرجع السابق، ص 445.

29. أنظر المنار، السنة 3، العدد 47، يوم 6 أو 7، 1953، ص 4.

الملاحق:

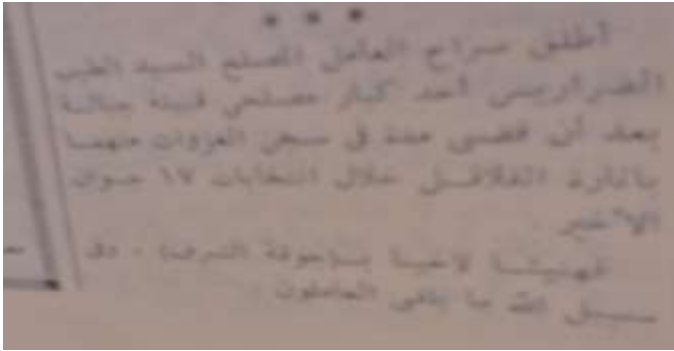
الملحق رقم 1:



بيان في جريدة البصائر حول الشروع في عملية تشييد مدرسة الطراس، الإثنين 17 نوفمبر 1952، العدد 207، السنة الخامسة من

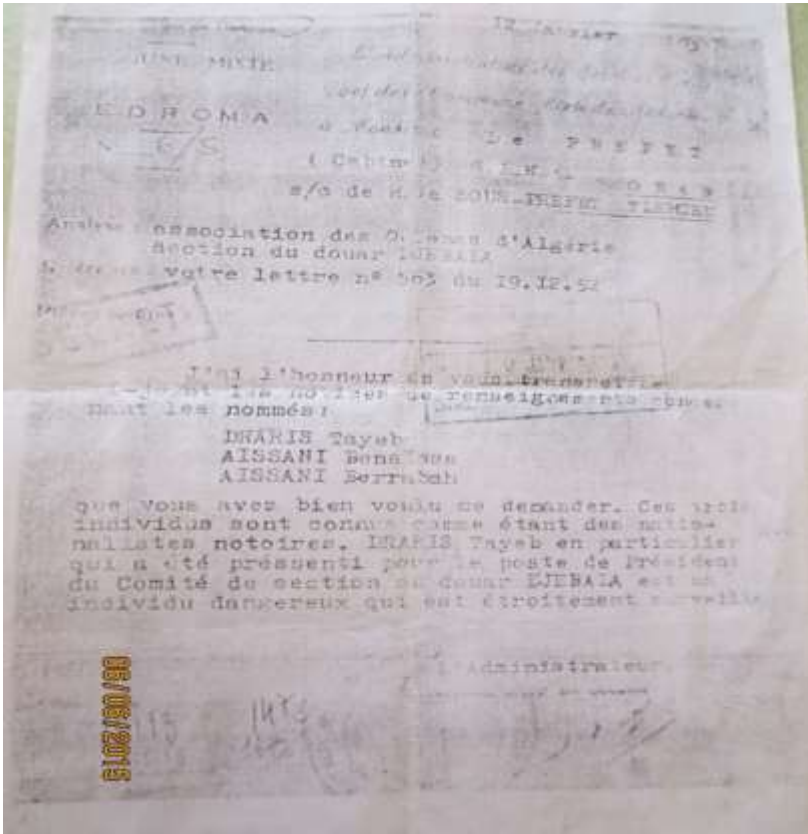
السلسلة الثانية، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين،
الجزائر، 2007، ص 219.

الملحق رقم 2:



خبر اطلاق سراح المصلح الطيب دراريس صاحب فكرة انشاء
المدرسة، جريدة البصائر، 2 جوان 1952، ص 200.

الملحق رقم 03:



وثيقة أرشيفية عبارة عن ردّ من حاكم ندرومة الى الوالي العام بوهران بتاريخ: 12 جانفي 1953 يشرح فيها وضعية الثلاثة المطلوب التحقيق عنهم وهم: دراريس الطيب، عيساني بن عيسى، عيساني براهيم، المصدر: حفيد المقدم الطيب دراريس الساكن بقرية العجانجة، جباله.

الملحق رقم 4:



صور توضح الشكل الخارجي للمدرسة مع بعض الإضافات المستحدثة
وكتابة توضح اليوم التأسيسي للمدرسة بقريّة الطاراس.